

مفهوم مصطلح الخلقية في تراث الخليل الصوتي

المخلص :

التلقيّة أو التلق مصطلح أطلقه الخليل ضابطاً لتلك الأصوات المؤلفة في العبارتين (مرّ بنفل، أو فر من لب) 1 ، وقد تارجح هذا المصطلح عند الخليل بين دالّتين، أولاهما استخدامه قاصداً به صفة مخرّجية، لأنّ تلق اللسان أي طرفه أحد الأعضاء المساهمة في إحداث طائفة من الأصوات من بينها اللام والراء والنون 2 .

أما الدلالة الثانية التي أسندها الخليل إلى هذا المصطلح فتتمثل في استعماله صفة بلاغية مريداً به مطلق الخفة في النطق والسلاسة في الكلام. وذلك كما يبدو في قوله: "المنقلة أخف الحروف في النطق، وأكثرها في الكلام، وأحسنها في البناء" 3.

والسّماحظ في جهود الخليل الصوتية أنّه أورد هذا المصطلح في صورتين إحداهما مفردة، والأخرى مركبة وذلك على ما سيّضح في تفاصيل هذه الدراسة.

الأستاذ : بوروبة المصدي

قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
والاجتماعية

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

قبل الشروع في تتبع حركة هذا المصطلح عند الخليل والمراحل التي قطعها حتى استقر على دلّاته العلمية يجدر بنا ههنا أن نقف عند معنى لفظة مصطلح من حيث اللغة، ثمّ عندما تطّلق على كلمة صرفت عن معناها اللغوي لتدلّ على معنى آخر في علم من العلوم، ثمّ نتطرّق بعد ذلك إلى فهم ومراد الخليل من هذه الكلمة وتعبيراته عنها.

إن المصطلحات ركن أساسي في كل علم، فهي التي ترسم شخصيته وتبدي معالمه وحدوده، وتعيّن دائرة انتسابه، وهي التي تنتظم أفكاره وتنديها من ذهن القارئ، كما أنّها حلقة الاتصال بين العلماء، وركائز توريث مضامين العلم لأجيال الأمة المتلاحقة.

ومصطلحات العلم توجد بعده بالضرورة، فبعد أن "يوجد الشيء يحتاج العلماء إلى تسميته فيختارون له من ألفاظ اللغة اللفظ الذي يناسبه على أساس العلاقة بين المعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي" 4 . واستناداً إلى هذا تكون مصطلحات العلوم تلك الألفاظ التي يتفق العلماء على اختيارها لتدلّ على شيء محدود في عرفهم حدّاً يتميّز به عن سواه 5 ، فيصبح لهذه الألفاظ عندئذ دلالتان، لغوية هي الأصل، واصطلاحية، هي العارضة الجديدة.

وقد تسارّجت لفظة «مصطلح» نفسها بين تينك الدالّتين. أولاها لغوية مأخوذة من أصل المادة، أي «صلح»، فقد أورد ابن فارس في «المقاييس»، والأزهري في «التّهذيب» أن الصّلاح نقيض الفساد، والصلح: السلم، والصلح: تصالح القوم بينهم، واصطلحوا واصلحوا، وتصالحو بمعنى واحد. والمعاني نفسها ينقلها كل من ابن منظور والزبيدي 6، أما الدلالة الثانية فهي الاصطلاحية أو العلمية، وتعني اتفاق جماعة على أمر مخصوص، وهذا الاتفاق والتّواضع أو التّصالح إن تمّ بين جماعة من المحدثين أسفر عن مصطلح في الحديث، وإن حصل بين طائفة من الفقهاء تولّد عنه مصطلح في الفقه، وإن وقع بين عصابة من النّحاة واللّغويين في ميدان الأصوات تّفقّ عنه مصطلح صوتي، ومثل هذا الكلام يقال في سائر العلوم 7.

ومعنى الاتفاق الذي آلت إليه لفظة «اصطلاح» حين اكتسبت دلالتها العلمية العارضة، واضح بيّن في دلالتها الأصلية. فالصّلاح بمعنى السلم أساسه الاتفاق بين المتنازعين، وكذلك تصالح القوم على أمر ما.

والظاهر أن الخليل كان مدركاً هذه الكلمة بمعناها العلمي يبدو هذا لديه في استخدامه إحدى صيغها بالمعنى المذكور في قوله: «السلام جزم، والأذان جزم، وهذا مما اصطلحت عليه العرب لكثرة الاستعمال» 8. ووظف الخليل أيضاً اللقب قاصداً به المصطلح أثناء حديثه عن أقسام الحروف الصّحاح، فقال: «من الأصول خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً يجمعها لقبان المصمّنة والمنقلبة» 9. واستثمر الخليل في بحوثه الصوتية طائفة من المصطلحات اجتبّيت منها مصطلح النّلقية، الذي سننتبّع أحواله وسلوكه فيما ورثنا الخليل من جهود صوتية، فنقول إن مصطلح النّلقية من وضع الخليل، بليل أن معظم النصوص القديمة التي تردت فيها هذه الكلمة بمعناها العلمي تنتهي نسبتها إلى الخليل بن أحمد. فهذا الليث بن المظفر ينقل عنه أن الحروف الصّحاح «بجمعها لقبان المصمّنة والمنقلبة» 9.

ومثل هذا أيضاً يورده عنه النضر بن شميل، فيقول: «سمعت الخليل يقول: الراء والام والنون نلق». 10 وأكد هذه النسبة إلى الخليل بعض المتأخرين، حين صرحوا بأن ألقاب الأصوات بما فيها النّلقية، كانت من خلق الخليل. 11

وتستغرق دلالة هذا المصطلح عند الخليل مجموعة صوتية يساهم نلق اللسان - أي صدره وطرفه - في تشكيلها. يبدو هذا في قوله: «ثلاثة نلقية رل ن تخرج من نلق اللسان من طرف غار الفم» 2.

كما يعدّ الخليل هذا العضو كذلك مبدأ انطلاق الأصوات المذكورة، وذلك في قوله: «السراء والام والنون نلقية، لأن مبدأها من نلق اللسان» 12. وقد تتسع المساحة الدلالية لهذا المصطلح عند الخليل فتشمل ستة أصوات ينتظمها حيزان متقاربان. يرشدنا إلى هذا لديه قوله: «المنقلبة... ستة أحرف في حيزين أحدهما حيز الفاء، فيه ثلاثة أحرف الفاء والباء والميم... والحيز الآخر حيز اللام فيه ثلاثة أحرف الراء واللام والنون» 13.

إن المنتبّع لسلوك هذا المصطلح في نصوص الخليل يدرك أنّه ترجّح لديه بين مفهومين، يتمثل الأول من هما في استخدامه صفة مخرّجية. فقد نص أن النّلقية ستة أحرف اللام

والراء والنون "مخارجها من مدرجة واحدة بين أسلة اللسان ومقدم الغار الأعلى" 14. ويلي اللام وأختيها الفاء والباء والميم وتطلق "من مدرجة واحدة لصوت بين الشفتين" 14. أما المفهوم الثاني الذي خلعه الخليل على المصطلح فيتمثل في استعماله صفة بلاغية، يتجلى هذا لديه في اعتلاله لستة الأصوات الستة المذكورة بالتلق فقال: "إنما سميت الحروف تلقا، لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشففتين" 2. ومن نصوص الخليل في هذا المضممار قوله: "لما نلتق الحروف الستة، ومذل بهن اللسان وسهلت في المنطق، كثرت في أبنية الكلام" 3.

واهتدى الخليل من خلال تتبعه لسلوك هذه الأصوات الستة في كلام العرب إلى اتخاذها معيارا صوتيا يكشف عن أصالة أبنية معينة، فقد نصّ على أنه متى صادفتك كلمة رباعية أو خماسية، لا تتضمن في بنيتها شيئا من المنقلة، فاحكم أنها "محدثّة مبتدعة ليست من كلام العرب" 15. واستنادا لما فات فإنّ ما قام به الخليل يدلّ دلالة قاطعة على إدراكه العميق لقيم هذه الأصوات ودلالاتها على خواص اللغة العربية وتركيبها الصوتي.

وإذا بحثنا عن المصدر الذي استقى منه الخليل لفظة النلقية مصطلحا ضابطا للمضمون المذكور، رأيناه قد انطلق من المعنى المعجمي لهذه الكلمة. فالتلق في اللغة: حدّ الشيء، ومن هنا دعت العرب طرف السنان الحاد تلقا، كما أطلقت ذلك أيضا على طرف اللسان 16.

وبناء على هذا، لما كان نلق اللسان عضوا رئيسيا في إحداث هذه المجموعة اتخذ الخليل من النسبة إليه مصطلحا ضابطا لتلك الأصوات المعروفة. 17

ويلاحظ لدى الخليل، أنه حين يقصر دلالة هذا المصطلح على اللام والراء والنون فإنه ينتقي للتعبير عن تلك صيغا خاصة، منها النلقية، ومنها أيضا الذلقية في نحو "الراء واللام والنون ذلقية". 18

ومنها كذلك التلق في مثل قوله: "الراء واللام والنون تلق" 10.

ونشير ههنا إلى أن الخليل يعتمد هذا الاستخدام حين يرمز إلى الفاء والباء والميم بمصطلح الشفهية 19. أما عندما يوجه المصطلح للدلالة على الأصوات الستة فإنه يختار للإفصاح عن تلك صيغة واحدة، هي المنقلة. 20

وقد سلك هذا المصطلح في تعابير الخليل صورتين إحداهما مفردة، وفيها استقر على كلمة واحدة، نحو المنقلة والتلق. 21 أما الأخرى فمركبة، وفيها انبنى من لفظة حرف في صيغة الجمع مضافة إلى كلمة نلق معرفة بالآلف واللام. 22

المواضع :

- 1 - سر صناعة الإعراب، لابن جني، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق سوريا 1985، ص: 64/1.
- 2 - ككتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور مهدي مخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، الطبعة الأولى 1980، ص: 51/1.
- 3 - مقدمة تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق عبد الوهاب الجابي، الطبعة الأولى، دار البصائر، دمشق سوريا 1985، ص: 59/1.
- 4 - مجلة المجمع العلمي بالقاهرة، المجلد 209/13.
- 5 - كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، مطبعة إقدام بدار الخلافة العلية عام 1317 هـ، ص: 903.
- 6 - مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية إيران، دت، ص/ مادة (صلح).
- 7 - معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة بيروت 1958، ص: 478/3 وينظر المطلع النحوي، لمحمد عوض القوزي، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983، ص: 22.
- 8 - الجمل في النحو للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان 1987، ص: 207.
- 9 - تذكرة النحاة، لأبي حيان الأنلسي، تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان 1986، ص: 25.
- 10 - نفسه 28.
- 11 - نهاية القول المفيد في علم التجويد، لمحمد مكي نصر، المطبعة الأميرية ببو لاق مصر 1308 هـ، ص: 42.
- 12 - العين 58/1..
- 13 - مقدمة التهذيب 65-66/1 وتذكرة النحاة 26.
- 14 - مقدمة التهذيب 65/1.
- 15 - العين 52/1.
- 16 - مقاييس اللغة ولسان العرب لابن منظور مادة (نلق).
- 17 - الدقاق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية، لذكرياء بن محمد الأنصاري، تحقيق نسيب نشاوي، مطابع ألفباء الأديب، دمشق 1980، ص: 41.
- 18 - مقدمة التهذيب 64/1.
- 19 - العين 51/1 و 58.
- 20 - نفسه 421/8 و تذكرة النحاة 25.
- 21 - مقدمة التهذيب 61/1.
- 22 - نفسه 60/1.